واقعيــة بعلبــكي...
تتخطّـى الـواقـع لتُغنيــه

عبد الحميد بعلبكي... الرسَّام والنّحات والشَّاعر، ثلاثة أقانيم اجتمعت في شخص ذلك المولود في قرية " العديسة " الجنوبية، عام ١٩٤٠، لتورق شجرة فنية تشكيلية وشعرية هائلة الاتساع، مزروعة في جنوبنا الصَّامد الجريح.

لعلَّ جدارية " عاشوراء " (زيت على قماش ـ ٣٦٠ × ٢١٠سم) هي " غرنيكا " الفن التشكيلي العاملي أو الجنوبي مع ما تعمله هذه المقارنة من وعي لواقعية عبد الحميد الساخرة الانتقادية في مساره الإبداعي التراثي ـ التحديثي، ولسوريالية صاحب " غرنيكا " بيكاسو التي جاءت نتيجة لتبادل وتداخل المتناقضات الفنية ـ التاريخية في سياق سيرته الإبداعية العالمية.

لوحة بعلبكي " الحي " التي تواجه الداخل إلى المعرض ، تختصر كل فرادة بيروت الحضارية بين العواصم، بتكثيف مشهدي مدروس ومعبِّر: شرفة بيروتية على حافتها قطة سوداء نائمة بتربُّص ، قربها نباتات مرسومة بعفوية التعبير الإنفعالي الحاد والمدروس في آن ، تطلُّ على نخلة وحيدة جسورة عالية تظلِّل بيتاً قرميدياً تراثياً قديماً، مثقوبٌ سطحه القرميدي بقذيفة من قذائف حربنا الأهلية. تحيط بالمشهد أبنية بيروت كما تبدو اليوم ، بعد انتهاء الحرب بسنوات ، بسطوحها التي تعتليها الصحون التلفزيونية اللاقطة، وبجدرانها وشبابيكها التي استعادت بهاءها القديم بعدما عملت أيدي اللبنانيين على تبييض الجدران وتنظيفها وتلميع الشبابيك والسطوح ، لتبدو ناصعة مدهشة محبَّبة في فوضاها المعمارية المتسلق بعضها أكتاف سطوح البعض الاخر!!..

في زيتيات المعرض تتجلّى شفافية عبد الحميد في انتقادياته الواقعية الساخرة لعالم المدينة، كما في لوحة " المقهى "، حيث تحتشد في هذا المقطع من المقهى الشرقي كل تناقضات وتنوعات الوجوه المتحلّقة حول الأراكيل، حاملة في وجوهها البارزة كل التنوع الانفعالي ـ المشرقي الذي يعكس الحالة الاحتفالية المتداخلة والمتشابكة لزبائن المقهى المتحلّقين حول السَّاقي ، وكأنه احتفال وثني من احتفالات " كارمينا بورانا " ولكن في مناخ شرق أوسطي تعجُّ به المقاهي الشعبية في دمشق وحلب وعمان والقاهرة، حيث كل وجه يحمل في طياته قصة من قصص نجيب محفوظ ، أو غالب هلسا، أو حنّا مينا.

يتجلّى البعد الثقافي الأكاديمي التأملي والتصوفي في علاقة عبد الحميد بالطبيعة. فلوحاته عن جذوع الأشجار بالباستيل السود، يبدو فيها بعلبكي رساماً في قلب الكارثة البيئية التي تهدِّد أشجار لبنان. لوحاته عن جذوع الأشجار بالسَّانجين أو زيتياته عن مناظر الطبيعة الجنوبية

الوادعة والأنيسة تشكّل النقيض الإنساني والفلاحي ـ كلنا أصولنا فلاحيَّة ريفية ــ المجبول برائحة الوزّال والبلاّن والصعتر البري ، للوحات النمساوي التشكيلي الشهير هندرت فاس الذي يصوّر جذوع الأشجار وغابات أوروبا بأدوات وتقنيّات لونية هندسية صناعية، تتحوّل فيها جذوع الشجار إلى " أشياء " هندسية ــ تزيينية مدهشة بمعدنية ألوانها، وكأنَّ الغابات الأوروبية تحوّلت إلى مصانع " بويا " معدنية لإنتاج الألوان الصناعية! عند عبد الحميد ، تبقى الطبيعة بدائية، مؤنسنة بشاعرية الرّيف البعيد عن التكنولوجيا الحديثة، يحافظ فيها عبد الحميد الرسام الرائي على جذوره الفلاحيَّة القديمة ، ويحميها من غول التكنولوجيا الصناعية الزاحف عليها من المدن ، بأصالة البيت الجنوبي العريق بتراثه الأدبي والثقافي والديني ، محملاً لوحاته همومه وتطلعاته كشاعر وفنان.

لوحة " الناطور " بالسانجين تنقل إلينا كل الشفافية الريفية والقدرة التعبيرية الواقعية النَّفاذة لريشة عبد الحميد الساخرة من القَدَريَّة الميتا ـ اجتماعية لوظيفة " الناطور" والمتجلية في عينيه اليقظتين المفتوحتين إلى حدهما الأقصى في تأمل بارد ظاهرياً، محتدم مأزوم داخلياً، أثناء جلوسه المستريح.

صدقية العلاقة بالريف الجنوبي تتجلّى في تجديده المستمر لتقنيات التلوين ، كما في لوحات المنظر الطبيعي ، أو لوحنه " بقايا شجرة " أو لوحته " زاوية من الطبيعة " والتي يتجلّى فيها تجديده لمدرسة فان غوغ التعبيرية باتجاه ينحو نحو التجريد كونياً.

في لوحته المدهشة " ربيع آخر" تبرز علاقة الشيخوخة لفلاح جنوبي بفرح الربيع ، يشمُّ الزهور الربيعية البيضاء، في قدرة تعبيرية ـ شعرية، ينتفي منها البعد الساخر أو التهكُّمي الذي نجده في لوحاته عن المدينة، لتعود ريشة عبد الحميد إلى صفائها الريفي الودود.

لوحتان في المعرض فقط يتجلّى فيهما عري نسوي ، لكنه يخلو من أية إثارة إيروتيكية، انسجاماً مع شاعرية عبد الحميد الهادئة والمحايدة نحو المرأة؛ الأولى مشهد من مشاهد الاستحمام عند الشاطئ والثانية الأكبر حجماً، تحتوي على إحاطة ثقافية شاملة باعالم الفرويدي والفيتيشي ، حيث ألعاب الفتى وأشياء المرأة أو الأم التي خلعت ثيابها، موضبة بترتيب مدروس ، حتى لنعجب كيف أنَّ عبد الحميد بقي محافظاً على مسافة كافية لإبعاده عن كابوسيات السوريالية ـ الفرويدية ، بكل تمزقاتها وغرائبياتها ، مستبدلاً الإدهاش العصابي ــ التخريبي عند دالي وسواه من الفرويديين المشوهين بالإدهاش الواقعي الأمين والملقح بتأملية شاعرية ، رصينة حكميتها، متينة ومتماسكة غرائبيتها، كما في لوحته " أريتريتان تتزّهان طفلاً على الكورنيش " أو لوحة " الشدة " التي تحكي موت أُم ، أو إمرأة مسنَّة، يعاني وجهها

نزاع الاحتضار الأخير. هنا تتجلّى العلاقة الإنسانية الراقية الحساسة والمهذّبة كاشفة عن رقّة ورهافة حس عبد الحميد نحو المرأة، خصوصاً في لوحته " فتاة تقرأ وأخرى مستلقية ".

عبد الحميد بتراثه الأكاديمي المتراكم منذ عشرات السنين ، قادر على تناول كافة التجارب التشكيلية ومعالجتها، ففي لوحة " العرّاف " معالجة للحروفية العربية التي نجدها في أعمال وجيه نحلة مثلاً، أما في لوحته بقلم الرصاص بعنوان " الحصاد الطيّب والحصاد الرديء " فيختصر بعجالة إلهامية مبسطة، لكن مدهشة، واقع الحرب في الجنوب ــ دبّابة إسرائيلية في مواجهة حصاد ـ بطريقة بعيدة عن المزايدات الشعارية الحماسية المباشرة، التي وللأسف ، انزلق إليها رسم الواقعية (التسييسية) لكثير من رسامي الواقعية التحريضية تأثراً ربما بالواقعية الاشتراكية الفجة والبائسة التي ازدهرت في أوروبا الشرقية في رسوم الخمسينات والستينات. واقعية عبد الحميد ليست سياسية مباشرة، لأنها تبتعد عن المباشر، والرائج والسائد، لتدخل في عوالم الفردانية والشخصانية. فهو بامتياز فنّان الصمّت والظلال والتأملات. يفضّل الكيف على الكم ، ولا يؤخذ بالسرعة والارتجال والتهوُّر. إنتاج أعماله يحتاج إلى زمن مديد ، وأناقة ودقة ، ومكابدة ومعاناة.

كتب الخطاط الفنان علي عاصي في شهادة قد تكون هي الصدق والأبلغ عن عبد الحميد بعلبكي الفنان والشاعر ما يلي :

" مخيف هذا العبد الحميد بإصراره على الدّقة والإتقان.. لكنه يدخلك بسرعة إلى تخومه فترتاح إلى رباحتها، ويسكنك ضفتيه، فتطمئن إلى سماحة فيه خفيّة كأنّه يتدفّق ريحاناً، وتأنس إلى عذوبة فيه تشدُّك بسلاستها وسحرها، فلا تلبث أن تنساب وئيداً في أثنائه وحناياه، لترى فيه صورة فلاّح طيّب ، متأبطاً محراثه، رافعاً رأسه ابتهاجاً بطلوع الشمس. وترى فيه فلاّحاً من نوع آخر، يبذر في ثلوم شوارع المدينة حبات الحياة، على أمل أن يستفيد الناس من جناها الوفير خبزاً لحياة خالية من كل طقوس الجهل والضغينة والتصنُّع..".

" عبد الحميد بعلبكي على خصام مع كل الطواويس ، والضاحكين ببلاهة المستسلمين للمقادير، وخواء الكراسي المزروعة على مقاهي الرصيف. وكأنه في سعيه اليومي يلتزم ترتيب الكون من جديد. يفتّش وينقّب عن أشياء كثيرة ضيّعت الشعور بقيمتها مخاضات الأحداث الأليمة... أشياء فنية ميرأة من الطمع المادي".

" لا أدري كيف يتّسع جسده النحيل لكل ما لديه من طموحات ، ولا أعرف كم من الإرهاصات يحتضن في نفسه. أعرف بالتأكيد شيئاً واحداً: إنّه بنّاءٌ (معمرجي) بامتياز. ممنوعٌ عليه أن يغلط كي لا يلتوي جدار البيت الذي يحلم أن يكون بحجم الدنيا... عيناه متعلقتان بعالم وفي لإنسانيته التي تنتج مع الرغيف كرامةً وفناً ومعرفة". **صفوان حيدر**

في الصـالــة الزجاجيــة:

الفنـان عبد الحميد بعلبـكي

يغمس ريشته بماء الوقت ليستنسل مرايا الوجود ؟!.

لا يتكلّف الفنان التشكيلي عبد الحميد بعلبكي أنسنة أعماله... ولا يحاول تجميلها ببهرج اللون ورشاقة الريشة واللعب على حبال التوليف.

هو لا يرسم في فراغ.. ولا يغرف منه، لهذا تجيء أعماله زاخرة بحيوية المعنى ، وقداسة الأصول.

٦٧ عملاً تشكيلياً نتاج معرضه الذي يستمر لغاية العاشر من آذار في الصالة الزجاجية لوزارة السياحة ـ الحمراء. أول ما يلفت المُشاهد فيها، أنها تلتزم موضوعات حية، وترصد حالات إنسانية تأخذها الريشة الحذقة من العادي إلى نقيضه... ومن المعيوش إلى أقاصي انكساراته في الزمان... وللزمن حضور طاغٍ في معظم أعمال المعرض ، فكأنما عبد الحميد بعلبكي يغمس ريشته بماء الوقت لستنسل من أعماقه السحيقات ما يؤسس لمرايا الوجود ، وما يتخمّر في دنان وعيه اليقظ ؛ الممسك بطرفي معادلة الحياة... فالأخضر يقابله اليباس... والصبا ترافقه الشيخوخة... والنقائض تحضر في اللوحة الواحدة أحياناً لتمارس الكشف المعلن عن مضمرات مواربة. كأنه فنان اللحظات الهاربة، ينجح كثيراً في اقتناصها وجرّها خارج أسر الدلالة الآنية، ليفجّر في محدوديتها أفقاً واسعاً للإيحاء.

٦٧ لوحة ، بينها واحدة مرسومة بالألوان المائية، وأخرى بقلم الرصاص وواحدة كولاج... وما تبقى نفّذه بعلبكي بمادة الزيت... وفي اللوحات ، جداريات... ومجموعة نفّذها بطبشورة (الصنكين).

لا يحمّل ألوانه الزيتية ما لا تحتمله من انعكاسات ، ولا يعكّرها بغواية التجريب ، فهو يبقيها مخلصة لرونقها، مجسّدة عناصر المشهد بوضوح تام... ألوانه خصبة.. وهذا ما يجعل اللوحات التي رصد فيها الطبيعة، تحاكيها وتفوقها أحياناً، وتأخذ المتلقي إلى أبعاد تنفتح أمامه في انسجام الألوان وتآخيها وتدفقها في أنساق تصنع بؤرها الضوئية دون الحاجة أحياناً إلى مكننة النور.

ثمّة علاقة متينة بين عبد الحميد بعلبكي والشجرة، فهي مفردة تتكرر في أبجديته التشكيلية، يلاحقها منذ لحظة التبرعم مروراً بالتسامق ، وصولاً إلى خريفيتها المؤقتة.. وكأنه يجد في الجذوع الهرمة وجهاً آخر لصورة المجتمع في تراخيه واستسلامه إلى اليأس... وفي تصحره ورماديته، وأكثر ما يتبدّى ذلك في أعمال (الصنكين) ... وفي بعض الأعمال

الزيتية... ويبدو أكثر جلاء في جدارية الحطّاب التي تختزل - ربما - سنوات من التجربة... وكثيراً من الصراخ... وفائضاً من الحكمة... فالحطّاب المتريّث خائراً وكسولاً أمام غابة من خشب يابس ، يدرك أنّ في فأسه الجاثمة على شجرة قريبة مقدرة على إزالة الموت وإحياء ما تبقّى... لكنه لا يفعل... يتركه عبد الحميد بعلبكي ذاهلاً ربما... وربما مترقباً لفرصة يثوب فيها الرشد... لكنه في الوقت ذاته، يبقى في غابة الشجر اليابس بصيص اخضرار وصحوة تبرعم ، مما يدل على أنّ الفنّان رغم كل تشاؤمه يؤمن بالنهوض والمقدرة على التغيير.

وتتوالى في المعرض لوحات ترصد الحياة الشعبية، وتدخل ما وراء المشاهد اليومية، لتكتب باللون قصيدة خاصة بالحياة..

يلتزم بعلبكي بالواقعية التشكيلية... فموضوعاته حارّة، ومنهجه واضح في تعرية القشور البرّاقة... بغية الوصول إلى ما تحتها من جمرٍ يحتر تحت هشيم قيد اللهب.

لا تغريه مطلقاً العشوائيات التشكيلية... والتفلسف المجاني على جمالية العمل... جمالية أعماله تأتي من احترامها لذائقة المتلقي... وتقدم له نفسها بسيطة كالهواء وشفافة كالموسيقى. وهو وإن كان يلتزم هذه المدرسة ويحرّر ريشته من الهذيان والتقليد والتصرعن واللهاث وراء فتات المدارس الغربية ونزواتها، فإن ما تخطته ريشته يأتي معاصراً على الرغم من وضوح التشريح وتجسيد الصورة.. فاللوحة بكامل عضويتها قد تشتمل على تجريدية في توزيع اللون... وقد تحمل الرمزية الموحية على واقعيتها، أو تقبل في الوقت ذاته عدة قراءات... لأن بعلبكي يترك مساحة للتأويل ويشرك المتلقي في وليمته السخيّة.

اللافت كذلك ، أن بعلبكي صرّح على بطاقة الدعوة أنّ لوحاته ليست للبيع... هذا قرار صارم ربما، في وقت ينتهج فيه معظم الفنانين مسلك الاتجار بأعمالهم... - وهذا حق أيضاً - كأنه أراد أن يكون النقيض ، معتبراً أنّ الفن لن يكون محكوماً أبداً بسلطة السوق... ومزاجية الإعلان.

٦٧ لوحة أصيلة... في معرض لم تشهد بيروت خلال سنوات مثيلاً له... في عدد اللوحات المعروضة في لقاء فردي... وفي نوعية الفن ومصداقية صاحبه... وفي سلوك وجداني من شخوص اللوحة، وينتهي بحامل الريشة. ربما يكون مقلاً، عبد الحميد بعلبكي... وربما تأخّر معرضه ١٥ سنة، لكنه وبجدارة هشّم المسافة ما بين معرضه الأول وهذا المعرض... وقدّم للمشاهد المتذوق لوحات تطهر الذائقة مما علق بها من غبار يطلقون عليه فناً تشكيلياً معاصراً..

مردوك الشامي